مجموعة مؤلفين

دور المثقف في التحولات التاريخية

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفصل العشرون

سؤال تجديد أدوار المثقف
في ضوء تحولات الربيع العربي
دور التواصل الشبكي والميداني كخيار استراتيجي

إبراهيم القادري بوتشيش

تطمح هذه الدراسة إلى فتح ملف نعتقد أنه لا يزال في مرحلة المخاض وجس النبض، وأن مفاتيح ألغازه المستعصية تستدعي المزيد من التفكر والتدبر، والمساءلة والاستنطاق. وتكمن أهميته في كونه يطرح سؤالًا راهنيًا على لحظة تاريخية جديدة، يُعاد فيها تشكيل دور المثقف بفعل ما أحدثه الربيع العربي من تحولات، وما تمخض عن طفرة التشبيك وتقانة التواصل من تغيرات على مستوى مفاهيم المثقف وأدواره المطلوبة. كما تتجسد أهميته أيضًا في ارتكازه على إحدى قواعد فلسفة التاريخ التي ترى أن رحلة الحضارات وانتقالها من مستوى تواصلي إلى مستوى آخر، يستلزم طرح السؤال في شأن كيفية التعبير عن حالة الوعي بتلك النقلة عبر الإمكانات الوسائطية المتاحة، وأن كل تحول تاريخي انتقالي يستلزم إعادة صوغ القول في مفهوم المثقف ودوره. وتكمن أهمية الموضوع من ناحية ثالثة في استناده إلى قاعدة النقد الذاتي التي ترى أن فكر المثقف وآليات اشتغاله ينبغي أن تخضع – من مرحلة إلى أخرى – لعملية اختبار وفحص ومساءلة، لكسر الرتابة والقيم الجاهزة، ومواكبة تحولات المرحلة الجديدة. ونحسب أن مرحلة التحولات التاريخية الكبرى – وضمنها تحولات الربيع العربي الحالية – تمثل

محكًا حقيقيًا لامتحان قيمة الدور الذي يقوم به المثقف، وتشريحه بمبضع النقد والمراجعة في ضوء المتغيرات الجديدة، واستخراج مواطن العطب التي تكتنفه، وضخّه بطاقة جديدة، وإعادة ترتيب آليات اشتغال المثقف بما يجعله أقدر على التكيف مع مستجدات الواقع و«نوازل» التطور المعرفي، وترويض أدواره بالصيغة الملائمة للتحولات التاريخية[1].

إذا كان من المسلّمات المتداولة أن المثقف يُعد محركًا أساسيًا للتاريخ، ومساهمًا في نحت منعرجاته الكبرى[2]، حتى أن مفكرًا من طينة بيار بورديو ذهب إلى حد الجزم أن «أقوال المثقفين تساهم في صنع التاريخ وفي تغيير التاريخ»[3]، فإن العالم العربي لا يزال على مستوى خريطة البحث والدرس يشكو شح الدراسات التي تختبر هذه المقولات، وتسبر أغوار دور المثقف في زمن التحولات التاريخية والمنعطفات الكبرى كحالة الربيع العربي، بهدف استنباط أنجع الخيارات الثقافية التي تجعله إيجابيًا وفاعلًا في حفر مجاري تلك التحولات وإبداعها والمساهمة في بناء معمارها.

لتوسيع رقعة مصادر البحث، إضافة إلى بعض الدراسات التي لا تخلو من أهمية، بل إن بعض متونها وقاعدة بياناتها يمداننا بمادة دسمة، عوّلنا أيضًا على المتن الميداني المتجسد في الشعارات المنطوقة والمكتوبة، وما تحمله لافتات حركات احتجاج الربيع العربي من أيقونات وعلامات سيميائية، فضلًا عن الكتابات الجدارية والرسوم الغرافيتية والطرائف المتناثرة في مواقع التواصل الاجتماعي. وتتجلى جدوى هذه «الحصيلة المصدرية الربيعية» في كونها رسائل بلاغية شعبية تعبر عن تحولات في الذهنية والأفكار التي يحتاج إليها المثقف كخيوط مرشدة لإعادة تجديد دوره.

---

(1) عبد الإله بلقزيز، **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000)، ص 44-45، وإدوارد سعيد، **المثقف والسلطة**، ترجمة محمد عناني (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006)، ص 42-43.

(2) محمد عابد الجابري، **المسألة الثقافية في الوطن العربي**، سلسلة الثقافة القومية 25؛ قضايا الفكر العربي 1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994)، ص 13 و15.

(3) Pierre Bourdieu, *Questions de sociologie* (Paris: Les Editions de Minuit, 1984), p. 67.

تأسيسًا على جُماع هذه المعطيات النصية، فإننا نسعى إلى تفكيك **الإشكالية** الكبرى لهذا البحث، وهي أن دور المثقف في ظل التحولات التاريخية التي يشهدها العالم – وضمنها تحول الربيع العربي – لا يكمن في تغيير المجتمع، بل في فهم كيفية تغييره. ومن ثم، فإن هذه التحولات هي التي تحدد دور المثقف، وليس الأخير هو الذي يحدد دوره فيها بناء على مقاسه الخاص. لذلك نقترح بسط النظر في مسألة تجديد دور المثقف انطلاقًا من عمق تلك التحولات التاريخية، وهو المثلث الإشكالي المتمثل في التواصل الشبكي المنفتح بوصفه علامة للتجديد على مستوى آليات الاشتغال، وتعديل المشروعات الفكرية بما يلائم القضايا المعرفية المستعجلة، وتطعيمها بأسئلة إبداعية تراعي متغيرات الربيع العربي. في حين يرتكز الضلع الثالث من سؤال تجديد دور المثقف العربي على «المكان»، وذلك من خلال توسيع مساحات حضور المثقف، لتشمل إلى جانب مدرجات الجامعات ومقار الأحزاب والنقابات والميادين والساحات العمومية، للمشاركة في الحركات الاحتجاجية والحلقات النقاشية الفكرية. تلك هي الأضلع الثلاثة التي سنسعى إلى لَملمة خيوطها في «الخيار الاستراتيجي» الذي نقترحه هدفًا رئيسًا في هذا البحث.

من أجل تحقيق هذه الأهداف المعرفية، تبنينا **منهجًا** تركيبيًا يقوم على التنقل عبر دوائر الفهم التي تشمل دائرة المثقف ودائرة محيطه العربي، وصولًا إلى دائرة محيطه العالمي من أجل فهم كيفية بناء أدوار فاعلة. واستدعى الارتحال بين هذه الدوائر الثلاث توظيف المنهج التاريخي المقارن والتحليل النسقي الشمولي (البانورامي) والمنهج الاستقرائي والمعطيات الإحصائية، مع الحرص على توثيق الأفكار والنصوص المستشهد بها، فضلًا عن الاستعانة بالمقاربة السيميائية وتحليل الخطاب لاستخراج الدلالات والإيحاءات الخفية في نصوص شعارات الميادين، وإبراز المسكوت عنه، في تحولات بنية الذهنية العربية.

يؤسس البحث على مجموعة من **الفرضيات** المنبثقة من حالة الانسداد التي وصل إليها دور المثقف في حوادث الربيع العربي، واستشراف الأدوار البديلة. ويمكن إجمال تلك الفرضيات في ما يلي:

– كل تحول تاريخي يُنتج مفاهيم جديدة خاصة بالمثقف، ويُعيد تحديد أدواره، ومن ثم، فإن تحولات الربيع العربي ستُفرز أدوارًا جديدة للمثقف العربي.

– ليس المطلوب من المثقف القيام بالدور الصحيح، بل القيام بهذا الدور بصورة صحيحة.

– إن قيمة الأفكار التي يُنتجها المثقف لا تُقاس بقدرته وبراعته في التنظير، بل بالفائدة والفاعلية والابتكار، ومدى تأثيره في الرأي العام، والمساهمة في حفر مجاري التغيير، ما يطرح أهمية التواصل الشبكي لتحقيق هذه الفاعلية.

– أهمية التشبيك في إعادة البناء والتركيب لصورة جديدة للمثقف العربي «الملائم» الذي يزاوج بين نشر المعرفة، والانخراط في الحراك الاجتماعي عن طريق تنزيل أدوات المعرفة وتبسيطها وتوزيعها من خلال الوسائط الرقمية، تسهيلًا للانتشار والتداول والحشد والتعبئة.

– مع اكتساح المصادر الشبكية المجال المعرفي، فإن دور المثقف بوصفه منتجًا للمعرفة سيتقلص بعد أن أصبحت الشبكة خزانًا للمعارف والأفكار.

– على الرغم مما نتج من الربيع العربي من انتقادات لاذعة لدور المثقف «التقليدي»، يمكن تطوير هذا الدور باستحداث جسر تكاملي مع دور المثقف الشبكي والميداني.

هذه هي أهم الفرضيات التي سنسعى إلى اختبار مدى صحتها في ثنايا البحث، بيد أن الأمر يحتاج أيضًا إلى توضيحات نظرية ومفاهيمية، نقتصر فيها على ما نراه مفاتيحَ أساسية.

أولًا: مفهوم المثقف الشبكي بين المرجعية النظرية والإجرائية

1 – مفهوم المثقف الشبكي

مصطلح «المثقف الشبكي» من المصطلحات التي أنتجتها تحولات الحداثة ومابعد الحداثة، خصوصًا في المجال التقاني والرقمي. وهو مصطلح مركب من

«المثقف»، وهو الاسم، و«الشبكي» الذي يرمز إلى الصفة والنعت؛ ولا نتوخى في ما يتعلق بمفهوم المثقف الدخول في تفصيلات هذا المفهوم، وما يرتبط به من الدلالات اللغوية والاصطلاحية، أو نعالج تاريخية ظهوره، فتلك قضايا أشبعت بحثًا ودرسًا من لدُن لفيف من الباحثين، كماكس فيبر وإدوارد شيلز وهشام شرابي وبرهان غليون... وغيرهم. ونكتفي بالإحالة على التفسير اللغوي المركب الذي أورده عزمي بشارة[4]، وعلى المعنى الاصطلاحي المعمق الذي جاد به قلم علي شريعتي[5]، إلى جانب ما تناولته أقلام ثلة من المفكرين العرب والغربيين الذين اهتموا بنشأة مصطلح (Intellectual)، مع ظهور «قضية ديرفوس» في نهاية القرن التاسع عشر وتطورها، واستحداث مصطلح «الإنتليجنسيا» في روسيا القيصرية[6]. فتلك بحوث شاملة جامعة، تكفينا مؤونة الخوض فيها، وتفادي اجترار الأفكار نفسها؛ بيد أن مصطلح «الشبكي» يحتاج إلى محطة للتأمل بحكم حداثة مفهومه.

إذا كانت كل لحظة تاريخية تُنتج مفاهيم ومصطلحات جديدة خاصة بالمثقف، فمن المنطقي أن يُولد التحول التاريخي المتمثل في ظهور العصر الرقمي الذي نعيش على عتبته، مصطلحات ومفاهيم جديدة من قبيل المثقف الشبكي والرقمي والوسائطي والمعلوماتي والميديائي والمثقف الناشط والمثقف الافتراضي و«المثقف الجديد» و«الفاعل الجديد» والمثقف المنشق... وغيرها من المصطلحات الرديفة التي تشي بأدوار جديدة تتماهى مع واقع مرحلة جديدة بات العالم يعيش على وقعها.

يمكن تحديد مفهوم المثقف الشبكي أنه الشخصية الفكرية التي انخرطت في عوالم المعرفة من خلال منظومة التبادل الشبكي التي تقوم على استغلال التقانة

---

(4) عزمي بشارة، **المثقف والثورة**، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة كراسات الكلية رقم 6 (الرباط: مطبعة الأمنية، 2013)، ص 8-9.

(5) علي شريعتي، **مسؤولية المثقف**، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، سلسلة الأفكار الكاملة 37، ط 2 (بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، 2007)، ص 50.

(6) علي أومليل، **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996)، ص 238-239، وعبد المالك ورد، **المثقف وتحولات الربيع العربي** (مكناس: برنت شوب، 2013)، ص 8، وكذلك: Alain Viala, *La Naissance de l'écrivain: Sociologie de la littérature à l'âge classique* (Paris: Editions de Minuit, 1985), pp. 270-280.

التواصلية في الربط والتشبيك لتحقيق تنمية ثقافية ومعرفية، أساسها التواصل المستمر لتبادل الأفكار وقاعدة البيانات والمعلومات والمعارف، بين مجموعات من البشر، يتصف من ينضوون إليها بأنهم ذوو أفكار متجانسة وأهداف مشتركة، يترتب عنها قيام مجتمعات تخيلية أو افتراضية تؤسس بين أعضائها علاقات قوية تساهم في حل بعض المشكلات الإنسانية كالمرض أو الأزمات المالية، وتستخدم الحقوق الديمقراطية في ممارسة الكثير من الفاعليات والنشاط الإيجابي[7]. وتجري وسائل التشبيك من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، مثل الفيسبوك وتويتر واليوتيوب والويكي والمنتديات الإلكترونية والمدونات والبريد الإلكتروني والمحادثة والدردشة والحوارات والهواتف النقالة... وغيرها من أساليب التواصل[8].

تحولت هذه الأشكال الإعلامية من وسيلة للترفيه والتسلية، إلى مصدر مولد ومنتج للمعرفة وموزع لها[9]؛ ومعها تبدلت خريطة المفاهيم وطرائق التعامل مع القيم، لأنها تتكلم لغة متحررة من المطلقات والمتعاليات، وتتعامل مع الواقع بمفردات الاستحداث والتركيب والتحول والبناء[10]. وتتميز بانفتاحها الشمولي على المدارك البشرية المختلفة وبطوفانها المعلوماتي. كما تتميز بسرعة البث والانتشار، حتى إن أحد الباحثين شبهها بـ«الريزومة»[11]، وهي النباتات التي تمتد وتتوسع أفقيًا تحت الأرض وفوقها، وتمتلك قدرة كبيرة على التشبيك والاتصال[12].

---

(7) عبد الغني عماد، **الثقافة وتكنولوجيا الاتصال: التغيرات والتحولات في عصر العولمة والربيع العربي** (بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2012)، ص 65-66.

(8) المرجع نفسه، ص 71؛ وعن أصناف مواقع التواصل الاجتماعي وسياق نشأتها وتعريفاتها، انظر: مصعب حسام الدين قتلوني، **ثورات الفيسبوك: مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي في التغيير** (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2014)، ص 102-109.

(9) قتلوني، ص 84.

(10) علي حرب، **ثورات القوة الناعمة في العالم العربي: من المنظومة إلى الشبكة**، ط 2 (بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، 2012)، ص 223.

(11) قتلوني، ص 210.

(12) مجموعة مؤلفين، **الثورة المصرية: الدوافع والاتجاهات والتحديات** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 74-75.

2 – المثقف الشبكي بصفته كائنًا وسائطيا وذاتًا مفكرة

يتميز المثقف الشبكي على المستوى التقني بالاشتغال بالقوة الناعمة الذكية، واستثمار الوسائط التقانية الجديدة، وتقنية النص المترابط (Hypertext). ويتميز من المثقف الورقي في آلية الاشتغال، حيث تتصف مهمة الأخير بالسكونية في إنتاج المعرفة ونشرها وتداولها، بينما تتصف مهمة الثاني بالحركية والتجدد إلى حد الفوران[13]، وبالإبحار في القارة الافتراضية مجيئًا وذهابًا بحثًا عن المواقع الثقافية والخزانات الوسائطية الرقمية التي تشبع نهمه الفكري؛ وهو في الوقت نفسه يكتب لغيره من المبحرين في الشبكة. وعند جمع مادة بحثه، لا يتوانى عن إشراك المتخصصين في حقل اهتماماته؛ فيصبح القارئ نفسه مشاركًا معه في الإنتاج في سياق هذه الدورة الواسعة من «الاقتصاد المعرفي»، على حد قول الفيلسوف بيار ليفي[14]. ويقدم الروائي والمبدع الفرنسي جان بيار بالب أنموذجًا لهذا التوجه التشاركي مع القارئ[15]، ما يؤكد أن المثقف الشبكي لا ينتج المعرفة بنفسه ولا لنفسه، بل يعتمد روح الفريق والتفكير الجماعي؛ إنه عقل مشارك، ومكوّن من مكوّنات العقل الكوكبي.

بيد أن مفهوم المثقف الشبكي لا يختزل في كينونته التقنية، واشتغاله بآليات الترابط الشبكي فحسب، بل هو أيضًا ذاتٌ لها مشروع وخطاب فكري يتضمن مواقف وقضايا يعاركها، من دون أن يزعم لنفسه القيام بدور المخلص المنقذ، أو يفرض في مشروعه سلطة فكرية ويقينًا فكريًا، أو وصاية على القيم العامة؛ بل يعتمد تقنية الحوار والاستعداد لتعديل أفكاره انطلاقًا من اقتراحات قرائه، فضلًا عن انفتاحه على الآخر، واعتناق هوية كوكبية مفتوحة وعابرة تقتسم القيم الثقافية

(13) محمد أسليم، «المشهد الثقافي العربي في الأنترنيت: قراءة أولية»، موقع محمد أسليم الإلكتروني، في: bit.ly/1VNkho0.

(14) Pierre Levy, «Vers une nouvelle économie du savoir: Des arbres de connaissances à la programmation comme des beaux-arts, en passant par l´idéographie dynamique,» *Solairis*, no. 1 (1994), at: bit.ly/1OPNSxS.

(15) زهور كرام، **الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية**، ط 2 (الرباط: دار الأمان، 2013)، ص 41.

الكونية. إنه المثقف الذي استفاد من دروس تشكل مناخ عالمي جديد تكسرت فيه الثنائية القطبية، ثنائية الشرق والغرب، وسقطت فيه الأصنام الخاوية، وظهرت مفردات جديدة كالديمقراطية التشاركية والتعددية والشفافية والأقليات والمجتمع المدني والأفكار العابرة القارات. واستفاد من ذلك ليُعيد توطين نفسه بوصفه مواطنًا يفكر ويعمل ويشارك ويبادر ويتحمل المسؤولية، وينخرط في الميادين وفي حركات الاحتجاج، وينتقد ويناقش ويتصل ويُنسق ويبتكر ويقترح كي يفعل ويؤثر ويغير ويتغير[16].

بعد رصدنا البناء النظري لمفهوم المثقف الشبكي، نتجه إلى حلحلة مفهوم الخيار الاستراتيجي كما هو مسطور في عنوان الدراسة لتبرير استخدامها.

3 – المفهوم النظري والإجرائي لمقولة الخيار الاستراتيجي

يمتَحُ الخيار الاستراتيجي مفهومه من «الاستراتيجيا» التي تحيل في المعنى التداولي على خطة محددة لها قواعدها النظرية، ومخططها ووسائلها وأهدافها؛ ما يجعلها منظومة فكرية، ومنهجًا في الممارسة والتطبيق. والاستراتيجيا كما يُعرّفها البعض هي «خطة شاملة، تنطوي على فن استخدام الوسائل المتاحة لتحقيق الأهداف»[17]. وإذا كانت قد لبست في طور النشأة عباءة عسكرية، فاهتمت بمجال خطط الحروب، فإنها أصبحت توظف اليوم في مجالات حضارية سلمية، حتى غدت مادة لتخصيب الفكر ومعتركات السياسة والاقتصاد، بهدف التأثير الإيجابي، والاستخدام الرشيد للإمكانات المتاحة والملائمة لمعطيات المرحلة.

يُحيل مصطلح «خيار» إلى معنى البديل الذي يطرح ضمن البدائل المتاحة. ويجري تفضيله واختياره من بين البدائل، لتَلاؤمه مع ظرفية المرحلة التي تنفذ فيها الاستراتيجيا؛ فيكون بحسب هذا المنظور يجسد أفضل التمثلات المتاحة لمواجهة تحديات تحولات المرحلة التاريخية السائدة، ويتميز بليونته وقدرته على التكيف مع المستجدات الطارئة.

---

(16) حرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 229.

(17) سامر مؤيد، «الاستراتيجية من منظور وظيفي إجرائي»، مجلة **الفرات**، العدد 6 (2009)، في: bit.ly/1ORROb8.

بعد صوغ الفرضيات وتحديد المفاهيم النظرية والإجرائية، نتصدى لمعالجة قضيتين مركزيتين في هذه الدراسة: **أولهما** التحولات التاريخية، ونقصد بها متغيرات القيم الكونية التي نمطتها طفرة تقنيات الاتصال والتشبيك، وما نتج منها من تحولات على مستوى الذهنية العربية المتساوقة مع انفجار الربيع العربي؛ و**ثانيهما** أثر هذين التحولين المتكاملين في تحديد أدوار جديدة للمثقف حسبما تقتضيه المرحلة الراهنة، وهي قضية تطبيقية سنعالجها ضمن محور الخيار الاستراتيجي الذي اقترحناه في هذا البحث.

ثانيًا: التحولات التاريخية الناظمة لسؤال تجديد دور المثقف الطفرة التشبيكية وسياقات الربيع العربي

ننطلق في تحليل هذا المحور من نقد مقولة ظل المثقف العربي متشبثًا بتلابيبها ردحًا من الزمن على الرغم من تسارع عقارب التطور المعرفي، وهي أن دور المثقف يكمن في تغيير العالم؛ والحال أن المقولة ينبغي أن تنقلب لتسير على قدميها بدلًا من السير على رأسها، بمعنى أن دور المثقف ينبغي أن ينصب في شأن فهم العالم قبل أن يُمارس أشكاله النضالية لتغييره[18]، الأمر الذي يستدعي فهم مستجدات المحيط الدولي، ولا سيما في مجال تقانة الاتصال.

1- تحولات تقنيات الاتصال والتشبيك بوصفها خلفية ناظمة لدور المثقف

انتقل العالم بفعل سرعة إيقاع الثورة الرقمية وتقانة الاتصال إلى مجتمع مابعد الحداثة، وتحول من خريطة التعايش الإنساني إلى خريطة التعايش بين الكائنات، وارتسمت في كوكبه مساقات جديدة، وتقلصت حدوده إلى حد جعل بعضهم يتحدث عن «نهاية الجغرافيا»[19]، على غرار «نهاية التاريخ» التي

(18) علي حرب، **أوهام النخبة أو نقد المثقف**، ط 5 (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص 155 و176، وأومليل، ص 10.

(19) صاحب هذا المصطلح هو بول فيلبريو، ويدل على كثافة التواصل بين الناس والكائنات، وعلى تقلص المساحات الفاصلة بين البشر. انظر: حرب، **أوهام النخبة**، ص 208.

نحتها فرانسيس فوكوياما. ونشأ أول مرة في تاريخ البشرية زمن عالمي متزامن على الكرة الأرضية، بعد أن كانت الحضارات في الأزمنة الماضية تعيش منفصلة في الزمان[20]. وغدت ثلاثة محددات تُشكل الخيوط المؤسسة لبنيته؛ وهي تقانة المعرفة واقتصاد المعرفة ثم مجتمع المعرفة[21]. وتبعًا لذلك، صار الانتماء الثقافي، وليس الطبقي، هو الطابع المميز لساكنته؛ بل إن تقانة الاتصال احتوت مقولة الصراع الطبقي لمصلحة الانتماء الثقافي[22]؛ ما يضع المثقف أمام أسئلة جديدة، وزمن جديد يتكلم لغة خاصة.

لا يخامرنا الشك في أن سقف دور المثقف تغير بفعل اكتساح الشبكة المعلوماتية؛ فما عاد هو «سيد» المعرفة كما كان من قبل، بل تقزّم دوره بعد أن أصبحت التقنية الرقمية تنتج حوامل جديدة للتخزين المعرفي، وتمارس تحولًا انقلابيًا في قدرات الإنسان في التذكر والتمثل والإبداع[23]. وفي معمعة هذا التحول الكوني، غدت الثقافة نفسها صنيعة تقانة التواصل؛ ولا تزال إلى اليوم تحفر فيها مجاري عميقة لا يمكن تجاهل تأثيرها في المثقف ودوره، وهو ما وقف عنده كاستلز، وحلّله بعمق ليصل إلى الحسم بأن الحتمية التقنية أصبحت قدرًا لا مفر منه[24]؛ بل ذهب شيللر إلى حد القول بضرورة وضع استراتيجياتنا في المستقبل انطلاقًا من النظام المعلوماتي المتدفق من الشبكات[25].

---

(20) جيرار ليكيرك، **العولمة الثقافية: الحضارات على المحك**، ترجمة جورج كتورة (بيروت: دار الكتاب الجديد، 2004)، ص 484.

(21) كمال عبد اللطيف، **المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 23.

(22) هربرت شيلر، **الاتصال والهيمنة الثقافية**، ترجمة وجيه سمعان عبد المسيح (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 2007)، ص 96.

(23) **تقرير المعرفة العربي للعام 2009: نحو تواصل معرفي منتج** (أبو ظبي: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/ المكتب الإقليمي للبلدان العربية بالتعاون مع ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، 2009)، ص 33.

(24) Manuel Castells, *L'ère de l'information. vol 1: La Société en réseau* (Paris: Fayard, 1998), p. 160.

(25) شيلر، ص 71.

حلت تقانة المعلومات بوصفها خيطًا موجها للثقافة والمثقف مكان المنظومة الأيديولوجية المغلقة؛ فما عادت هناك ثقافة رأسمالية وأخرى اشتراكية، أو مثقف «تقدمي» وآخر «رجعي»[26]؛ بل إن الشبكية المفتوحة أتاحت الفرصة أمام الجماعات للتعبير عن آرائها من دون إكراهات أيديولوجية، وأصبح كل واحد يساهم في تغيير «الآخر» بصورة من الصور، ما أدى إلى انبلاج واقع جديد له سمة مزدوجة سمّاها علي حرب «التشابك والتواطؤ» بسبب تداخل مصائر البشرية على المستوى الكوكبي[27]، ما يستدعي مراجعة مواقف المثقف، وإعادة صوغ أدواره نتيجة هذا المتغير العالمي.

تأسيسًا على هذه التحولات التقانية، تحولت المعرفة إلى العالم الافتراضي الذي أُسست فيه «حياة ثانية» تضم أروقة افتراضية عدة، كالجامعة الافتراضية والمعاهد الإلكترونية والتلميذ الرقمي[28]، والمثقف الرقمي الذي ما عاد في حاجة إلى رضى الناشر، أو إلى سمعة علمية تتيح له نشر كتبه، بل صار بإمكانه أن ينشر مؤلفاته متى شاء. وإذا كان يمتلك بضاعة فكرية قيمة، فيمكنه أن يزاحم بها المثقف الورقي المرموق، أو ربما يربو مكيال وزنه العلمي عليه.

من تجليات التحولات أيضًا، إعادة تنظيم مصدر المعارف وتوزيعها؛ إذ صارت تقانة الاتصال تقوم على مبدأ تجزئة القوة التقليدية لمصدر المعرفة وتفتيتها إلى أجزاء يسهل وصول الأفراد إليها، وتحول دون احتكارها من طرف المصدر القوي، ما يعني تعميم المعرفة وتسهيل وصول المجتمعات والأفراد إليها[29]. وبالمثل، عرف توزيع المعرفة تحولًا انتقل بمقتضاه من الهرمية العمودية إلى الخطية الأفقية، أي الشبكية، فتحولت من قوة كانت حكرًا على النخب الثقافية إلى عموم الناس، ليصبح المتلقي في غنى عن المثقف الذي كان مزوده الرئيس بالمعارف؛ إذ أفلحت الثورة المعلوماتية في جعل المعرفة في متناول الجميع،

(26) الجابري، ص 185–186.

(27) حرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 18.

(28) Michel Larrory, «L'élève numérique: Comment pensent et agissent les digital natives,» *Le Monde de l'éducation*, no. 368 (Mars 2008), p. 62.

(29) Clay Shirky, «The Political Power of Social Media, Technology: The public Sphere and Politic Change,» *Foreign Affairs*, vol. 90, no. 1 (2011), at: https://goo.gl/HVH0dD.

وأضعفت سلطة المثقف «التقليدي»، وجعلت «إقطاعه المعرفي» ينهار تحت ضربات معاول الشبكة العنكبوتية[30]، وانتقلت بالمتلقي من مربع قبول سلطة المثقف إلى مربع المشاركة في إنتاج المعرفة، بعد أن صار هو نفسه قادرًا على تزويد شبكة المعارف بنصوص رقمية أو وثائق أو مذكرات شخصية أو إحصائية أو كتب أو مقالات[31]. كما غيّرت في تموضعاته من رفوف المكتبة التقليدية إلى المكتبة الإلكترونية، الأمر الذي يعكسه أنموذج وثائق ويكيليكس التي أعطت المؤرخ وثائق رقمية جديدة على الشبكة، عدّها أحد الباحثين ثورة حقيقية غير مسبوقة في مجتمع المعرفة الرقمي[32]؛ وبذلك كُسِر احتكار المثقف «التقليدي» مجال المعرفة، ما يحتم عليه تجديد أدواره.

2 – أدوار متجاوزة

من البدهي أن تؤثر التحولات الجديدة التي لحقت بسوق الثقافة في أدوار المثقف. ويمكن في هذا الصدد تسطير بعض الأدوار التي أصبحت متجاوزة تحت ضربات هذه التحولات؛ فمن الأدوار التي كسرتها معاول منصات التواصل الشبكي، نيابة المثقف عن تمثيل الناس والتعبير عن أفكارهم بلسانه. فبعد أن صارت هذه المنصات حاضنة كل الكتاب والمنخرطين، تلاشى دور الوكالة الذي كان يقوم به المثقف نيابة عن الجمهور، وصار الناس في هذه المواقع يعبرون عن أفكارهم بأنفسهم وفقًا لأنموذج «التمثل الذاتي»[33] (Auto - representation).

بالمثل، ثمة دور آخر أصبح متجاوزًا أيضًا بتأثير التواصل الشبكي؛ وهو الدور الفردي الذي وسم أداء المثقف العاجز عن توسيع قاعدة قرائه، وهو العطب الذي اشتكى منه المثقفون العرب دائمًا، وتباكوا على غياب القارئ. والحال أنه لم يبق في هذا العالم مكان للمثقف المنعزل[34]؛ فالشبكات التواصلية ولدت

(30) بلقزيز، ص 80.

(31) أسليم.

(32) مجموعة مؤلفين، **ظاهرة ويكيليكس: جدل الإعلام والسياسة بين الافتراضي والواقعي** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 354–355.

(33) المرجع نفسه، ص 209.

(34) ليكيرك، ص 472.

جمهورًا عريضًا وصفه بعضهم بأنه «ثالث أكبر أمة بعد الصين والهند»[35]؛ الأمر الذي تعضده الإحصاءات في شأن تزايد الاستخدام العالمي للإنترنت ووسائل الاتصال بكثافة في العقد الأول من القرن الحالي[36]. ولا يساورنا الشك في أن هذا التحول ينهي تمامًا دور المثقف المنعزل، وينقله إلى مربع المثقف المتصل، أو «المثقف الجماعي» على حد تعبير بيار ليفي[37].

من أدوار المثقف التي نحسب كذلك أن التحولات العالمية وتقانة التشبيك على الخصوص قلّصت من حجمها، دوره في الدفاع عن الهوية؛ إذ نتج من التحولات الجيو – سياسية ظهور فكرة «السيادة المتقاسمة» التي تعد مناقضة مبدأ سيادة الدول، وأصبحت مساحة القانون الدولي تتسع لتتجاوز المعاهدات والاتفاقات وتمس القيم المجتمعية الدولية[38]، ما غير مفهوم الخصوصية والهوية التي أصبحت – كما فطن إلى ذلك أحد الباحثين – هوية «مركبة تستمد مقوماتها من مصادر مختلفة منفتحة على عوالم متعددة»[39]، وتتلون بألوان التطورات الاقتصادية والتقانة الحديثة التي حولتها إلى مفردات النسبية والهوية المهجنة. وصار المثقفون «فئة اجتماعية عالمية عابرة للأمم»[40]، ما ترتب عنه بلورة مفهوم عالمي جديد للمواطنة، يتمثل في «المواطنة الرقمية» أو بالإنسان الرقمي ذي الأنا التواصلي[41]؛ ما يفرض على المثقف إعادة السؤال في شأن استمرار صلاحية الدور الذي كان يقوم به تجاه هذه الأيقونة التي مثّلت أبرز الأيقونات في مشروعه المجتمعي.

---

(35) السيد ولد أباه، **الثورات العربية الجديدة: المسار والمصير** (بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2011)، ص 40.

(36) انظر الإحصاءات التي وردت في: قتلوني، ص 73.

(37) Levy.

(38) ولد أباه، ص 46.

(39) مجموعة مؤلفين، **الانفجار العربي الكبير: في الأبعاد الثقافية والسياسية** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 96.

(40) لا تنفي هذه العالمية التقاليد الوطنية كما عبّر عنها المثقفون الأوروبيون واليابانيون، انظر: ليكليرك، ص 478 و483.

(41) حرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 12 و15، وكمال عبد اللطيف، **الثورات العربية: تحديات جديدة ومعارك مرتقبة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 61 (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013)، ص 46.

3 – تحولات الربيع العربي: ميلاد ذهنية عربية جديدة ولحظة تأسيس أدوار جديدة للمثقف العربي

يؤكد معظم الدراسات أن الربيع العربي يمثّل علامة فارقة، ومجرى جديدًا في تاريخ العالم العربي، الأمر الذي تعكسه دراسة غربية حديثة يحمل عنوانها شحنة دلالية على هذا الارتحال نحو زمن عربي جديد[42]، لا من حيث تداعياته السياسية فحسب، بل من حيث تشكيله بنية ذهنية جديدة أيضًا جعلت كمال عبد اللطيف يموضعها – وفقًا للنمذجة التحقيبية التي يقترحها لتاريخية الفكر العربي – في سياق مرحلة متقدمة يسميها «لحظة الوعي بالذات»[43]، ويؤطرها ضمن المرحلة الرابعة من مراحل السياقات التاريخية المؤسسة لمشروعات الإصلاح السياسي والفكر النهضوي العربي.

في المنحى نفسه، عدّ علي حرب الربيع العربي فتحًا لعهد جديد سماه عصر «الثورات الناعمة»[44]. في حين عبّر عزمي بشارة عن هذا الولوج العربي لعصر جديد بالقول إن «مرحلة جديدة قد بدأت تلوح في الأفق»[45]، وهو حكم استقاه من قلب التغيرات التي طرأت في نظام الحكم العربي المتحوّل من قبضة الحزب الحاكم وحكم «الحبايب والأقارب» إلى حكم يجري التنافس عليه في سوق الانتخابات؛ بل نحت في سياق متابعته وتشريحه ثورات الربيع العربي مقولة غاية في الأهمية نحسب أنها مفيدة في قراءة مجريات هذا التحول، وهي مقولة «القابلية للثورة»[46]، ويقصد بها ظهور مرحلة جديدة بلغ فيها الوعي العربي درجة عالية

---

(42) Lin Noueihed & Alex Warren, *The Battle for the Arab Spring: Revolution, Counter-Revolution and the Making of a New Era* (New Haven, CT: Yale University Press, 2012).

(43) عبد اللطيف، **الثورات العربية**، ص 87، وكمال عبد اللطيف، **أسئلة الحداثة في الفكر العربي: من إدراك المكان إلى وعي الذات** (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009)، الفصل الأول، ص 59–79.

(44) حرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 9 و156.

(45) عزمي بشارة، **الثورة التونسية المجيدة: بنية ثورة وصيرورتها من خلال يومياتها** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 15؛ ولو أنه تحفظ إلى حين اتضاح معالم ثورات الربيع العربي.

(46) المرجع نفسه، ص 17–18 و51.

من الشعور بالمعاناة، يجعل تغييرها ممكنًا بالفعل المضاد لمجراها بفضل توافر الشروط الملائمة[47].

على الرغم من مبالغة دراسات رأت في مواقع التواصل الشبكي، ولا سيما الفيسبوك، محركًا لحركات الاحتجاج العربي، في ما أصبح يعرف بـ «أسطورة الفيسبوك»، فلا يمكن إنكار دوره في زيادة جرعات الوعي والتعبئة للتغيير. ولا غرو حين عدّه عزمي بشارة «مكان لقاء، ووسائل لإنتاج الوعي، وإنتاج الجماعات الاحتجاجية»، وآلية للحشد والتعبئة وتوليد «الزمن الوطني المتجانس»[48]، الذي يعبر عن سيولة حوادث جهة ما داخل أي وطن نحو باقي الجهات الأخرى. فتوارى بسبب ذلك المثقف المناضل، ليحل محله «الناشط الشبكي»، أو «الميديائي» الذي يهتدي بمعايير العقل الكوني، ولا يخضع لتوجهات دولة أو مراسيم طاغية[49].

تكشف معاينة الوقائع والحوادث المرتبطة بالربيع العربي عن تحول آخر في عقلية المجتمع العربي؛ ويتعلق الأمر بالتحول الذي أصاب البنية العمرية للفاعلين الجدد في التغيير، وهي فئة الشباب الأكثر تمثيلًا في خريطة استخدامات منصات التواصل الشبكي والميداني، خصوصًا شباب البطالة المتعلمة التي تملك نصيبًا محترمًا من الثقافة، وتحمل شهادات عليا[50]. فأول مرة تدخل هذه الفئة باب التاريخ مدفوعة بشعور التهميش الذي شملها، وبمشهد جديد غير مألوف يتجلى في استعدادها، بل تصميمها، على التضحية بكل شيء، حتى بشروط بقائها الحيوي، وتوظيف سلاح الجسد في أفظع المشاهد المؤلمة (الإحراق) لتحقيق مطالبها.

إذا كانت الفئة العمرية الشابة لا تحدد – كما يذهب إلى ذلك بورديو –

---

(47) عزمي بشارة، **في الثورة والقابلية للثورة** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 61 و64.

(48) بشارة، **الثورة التونسية المجيدة**، ص 150.

(49) ليكيرك، ص 473.

(50) جاك قبانجي، «لماذا 'فاجأتنا' انتفاضتا تونس ومصر؟: مقاربة سوسيولوجية»، مجلة **إضافات**، العدد 14 (2011)، ص 25.

بالأعوام، بقدر ما تتحدد بالحيوية والدلالات السياسية، فإن الربيع العربي أفرز معطى جديدًا عمل على خلخلة نظام توزيع الأدوار بين مختلف الأعمار؛ إذ إن معظم الأحزاب والتنظيمات المدنية العربية ظل مُخلصًا لنظام يمنح السلطة للكهول والزعماء القياديين الذين بلغوا من الكبَر عتيًا. لذلك فإن مقولة «لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية» التي راجت في وسائل الإعلام (عبر قناة **الجزيرة**)، تحمل رمزية خاصة تُحيل على تحول في الذهنية العربية نحو تقاسم الأدوار بدلًا من احتكارها. وتُوحي قراءة ما وراء سطور هذه المقولة باستنتاج أن خطابها يرمز إلى ما صار يقتضيها لانتقال الثقافي والسياسي بتسليم القوى الهرمة مسؤولية التغيير للفئات الشابة، ما يشي بتحول من عقلية الحجر والوصاية على إبداع الشباب وتعطيل حركيتهم، إلى ضرورة إسناد دور لهم والاعتراف بذلك، وأن هذه الفئة التي كان ينظر إليها بوصفها مرادفة للعبث واللامبالاة، ويكيل لها المثقف العربي تُهَم التسرع والمراهقة السياسية، أثبتت في ظل تحولات الربيع العربي أنها على قدر كبير من المسؤولية والوعي والتنظيم والحس السياسي.

لم تقتصر تحولات الربيع العربي على تغيير الأدوار تأسيسًا على البنية العمرية الشابة فحسب، بل حتى على مستوى الجندر، إذ ارتفع معدل المشاركة النسائية في عملية التغيير. ونستحضر في هذا الصدد أنموذج مشاركة النساء اليمنيات في قيادة الحراك الاجتماعي، ومن ضمنهن الناشطة المبدعة توكل كرمان. كما شملت التحولات عملية الاحتجاج النسوية بظهور أسلوب جديد يتجلى في التعري المضاد[51]، ما يعكس بداية انكماش العقلية الذكورية المتسيدة، وحلول زمن جديد يُنصف المرأة ويُحمّلها مسؤولية إنجاز أدوار التغيير أيضًا. كما تحوّلت الأمكنة الجغرافية لتشمل إلى جانب المدن، الأرياف والهوامش[52].

إننا إذًا أمام معادلات جديدة، بل أمام تحول بيوسيكولوجي في الذات العربية[53]، تحول أفرز ظاهرة «الكائن الشبابي» و«الظاهرة النسائية»، كلحظتين

(51) حرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 9.

(52) مجموعة مؤلفين، **الثورة المصرية**، ص 97.

(53) مجموعة مؤلفين، **الانفجار العربي الكبير**، ص 76.

متميزتين، تؤسسان لوجوب إسناد دور ما إلى هذه الشرائح في مرحلة مابعد الربيع العربي؛ الأمر الذي ينبغي أخذه في الحسبان عند تحديد أي دور جديد للمثقف.

تكون هذه الفئة الشبابية المسنودة إلى رمزية الشجاعة وقيم التضحية والمروءة والفتوة، وراء تحول جديد أفرزه الربيع العربي أيضًا: إنه انبثاق «زمن مابعد الخوف» الذي هو في نظرنا من أبرز التحولات السيكولوجية الإيجابية التي كسبتها الذات العربية، وسيكون لها تأثير في تبني الأدوار المستقبلية للمثقف. فالانتصار على عقدة الخوف أخرج الوطن العربي من ثقافة الخنوع والتسليم بالأمر الواقع، إلى ثقافة الاحتجاج والنزول إلى الشارع، والاستعداد لتقديم الأجساد إلى ألسنة النيران، أو إلى سيوف الطغاة، بغية تحقيق المطالب العادلة.

من أمانة التحليل، عدم تبخيس دور منصات الترابط الشبكي في نحت مسار هذا التحول النفسي؛ إذ أصبح كل من يستخدم الفيسبوك أو تويتر أو المدونات يشعر بأنه مسنود من جماعة أكبر، ومعضود بقوة معنوية تُحول عالم الافتراض إلى واقع. فالمنصات الشبكية ضخت في الشعوب العربية جرعات كبيرة من الجرأة وثبات الجنان؛ كما أعادت إحياء الضمير الجمعي المتمرد على الفردية، حيث بدا واضحًا في مواقع الترابط الشبكي، وترجم في «مليونيات» الميادين التي رفعت فيها شعارات تعبر نحويًا بضمائر الجمع (نحن، نحنا، إحنا، داحنا)[54]؛ الأمر الذي يؤكد تأكّل قشرة الخوف مع صعود الروح الجماعية – التآزرية.

تنامى التآزر الجماعي لكسر شوكة الخوف مباشرة بعد إحراق الشهيد البوعزيزي نفسه؛ وهي حادثة لها رمزية ودلالات بعيدة الغور، حيث إنها تحيل على عمل «تطهري» و«تطهيري» في الوقت نفسه؛ تطهري لأن حركة استشهاد البوعزيزي تعني أنه فقد معنى الحياة والكرامة الإنسانية، فأراد أن يطهّر نفسه، و«تطهيري» بالنظر إلى ما أعقب عملية الإحراق التي حدثت بمسمع الملأ وبصره، وفي سوق عام يمثل ملتقى الناس، اختاره الشهيد ليحمل مكوّنات المجتمع

(54) من أمثلة ذلك ما كُتب في الجدارية: «نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت»، «إحنا حنحمي أرض النيل». انظر: نادر سراج، **مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014)، ص 106.

المسؤولية[55]، كأنه احتجاج على ثقافة الخوف والخنوع التي غرست أظافرها بقوة في جسد المجتمع العربي ردحًا طويلًا من الزمن. بيد أن استشهاده حوّل الاحتجاج الفردي إلى حركة تفاعلية تجسّدت في انتقال الاحتجاج من الذات الفردية اليائسة إلى الذات الجماعية المستنهضة، وأسّس لحظة فاصلة بين زمنين: زمن الخوف والرهبة، وزمن الإقدام والجرأة والصرخة في وجه الظالم.

من جهة أخرى، أفرزت تحوّلات الربيع العربي عقلية جديدة تتجاوز في رؤيتها مفهوم الزعامات الكاريزمية والنماذج والمثل العليا؛ وحسبُنا أن حركات الاحتجاج العربي كشفت عن عدم تقبل العقلية العربية مبدأ التوجيه من «فوق»، أو الخضوع للتدرج الهرمي في التنظيم، أو البقاء رهن إشارة «المرشد» أو الزعيم. كما ظهرت بوصفها ذهنية متمردة على منطق التسيد والنيابة عن غيرهم في التعبير عن المواقف. فالفاعلون في الربيع العربي كانوا في غنى عن أي زعامة تكبل روح إبداعهم، أو توجه حركتهم بما لا تشتهيه أنفسهم[56]؛ فهم يرتبط بعضهم ببعض، ويتحركون عبر تشبيك مرن قابل للتغيير، من دون أوامر من قيادة أو مركز، ومن دون ارتهان بنظرية مثقف أو فتوى فقيه، أو أمر زعيم قبيلة؛ فكانت مواقع التواصل الشبكي بمنزلة قائد لا يملك جسدًا، بيد أنه يملك عقلًا مدبرًا، وتخطيطًا محكمًا، ويعرف كيف يكسب عطف الرأي المحلي والدولي[57].

على غرار رفض الزعامات والقادة، أماطت حوادث الربيع العربي اللثام عن اتجاه جديد في العقلية العربية يتمثل في رفض الأيديولوجيات الأحادية والبراديغمات، في مقابل اختيار مبدأ التوافق؛ فغدت الميادين والساحات العمومية وسطًا تلتقي فيه التيارات، وتتفاعل فيه الطوائف والديانات؛ إذ امتزجت شعارات العَلمانيين بالإسلاميين والليبراليين، والمسلمين بالمسيحيين، والاتجاهات التي تجمع بينها إرادة التغيير[58]. وهيّأت لهم منصات التواصل الشبكي تحقيق ما سماه ولد أباه «تزامنية المشاعر» وائتلافية الأهواء والأحاسيس[59]، بعيدًا عن ائتلافية

(55) بشارة، **الثورة التونسية المجيدة**، ص 139.

(56) مجموعة مؤلفين، **الانفجار العربي الكبير**، ص 74؛ بشارة، **في الثورة والقابلية للثورة**، ص 67–68، وحرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 148.

(57) مجموعة مؤلفين، **الثورة المصرية**، ص 68.

(58) سراج، ص 83، وحرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 146.

(59) ولد أباه، ص 134.

المصالح الضيقة التي تعصف بأي حركة احتجاجية، وتُعيدها إلى المربع الأول. فالعقلية العربية سئمت من الأيديولوجيات والنظريات الفاشلة التي تقذف بها نحو مستنقع الوهم، والغد الذي لا تشرق شمسه.

لعل من أبرز التحولات التي أفرزها الربيع العربي أيضًا على صعيد الذهنية العربية، ظهور الثقافة الناعمة التي تجنح نحو التغيير بأسلوب السلم والحوار، بل أوجدت إشراقات إبداعية طريفة، تمخضت عنها هندسة أنموذج احتجاجي يُعد من أرقى النماذج التي عرفها التاريخ الراهن، وأبهر العالم؛ فهو أقرب إلى العمل الفني في إبداعيته وخروجه عن المألوف في تاريخ الثورات؛ بل هو أقرب إلى «المعجزة»[60]. فمعظم ثورات الربيع العربي اتسم بطابعه السلمي المتحضر، بدليل ما رفع في تظاهراته من شعارات وإبداعات فنية سلمية، امتزجت فيها حرارة الدفاع عن المطالب، وصيحات المظلومين، بوداعة الكرنفال الراقص، والصور واللوحات الفنية، والنكات الهزلية والخطوبة والأفراح، مقدمة بذلك لوحة تختلف عن لوحات ثورات التاريخ قديمه وحديثه، لأنها لم تستعمل مدفعًا ولا بندقية؛ بل إن الفاعلين الشبكيين في اليمن اشترطوا على من ينضم إليهم من العسكريين وأهل القبائل أن يتخلوا عن أسلحتهم[61]، ويعوضوها بالهتافات السلمية؛ إنها خيار «حبي» بكلمات أحد الباحثين[62].

ثالثًا: دور التواصل الشبكي والميداني بوصفه خيارًا استراتيجيًا الممكنات والكوابح

لا نزعم أن هذا الخيار الاستراتيجي[63] يقدم وصفة جاهزة، بقدر ما هو ترتيب لتصورات مبنية على التحاليل والاستنتاجات السابقة، وتركيب يُدرج في سياق صيرورة متحولة تروم إيجاد صيغة من صيغ العمل لوصل منجزات الثورات

(60) المرجع نفسه، ص 143، وحرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 8.

(61) حرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 143.

(62) سراج، ص 91.

(63) على الرغم من أن عنوان الدراسة يكتفي بذكر تحولات الربيع العربي بوصفها خلفية محدّدة لتجديد أدوار المثقف، فإن ذلك يُدرج ضمنيًا في خانة التحولات العالمية التي أنتجتها الثورة التقنية والتشبيك، من جهة الدور الذي قامت به في إنتاج ذهنية عربية جديدة كانت وراء ثورات الربيع العربي.

السياسية التي جاء بها الربيع العربي، بثورة ذهنية تصيب مراميها البعيدة، ويكون المثقف الشبكي هو الفاعل الأساسي في تحقيقها عن طريق الجمع بين الفكر والممارسة والفعل، من خلال منصات التواصل الشبكي والحضور الميداني.

1 - الأسس

يقوم الخيار المقترح على ثالوث يجمع بين التشبيك ونشر المعرفة والمعاينة الميدانية؛ بُغية تحقيق جملة أهداف تتجلى في العمل الفكري الجماعي التبادلي، وتفعيل العقل التداولي التشاركي من خلال منظومة التشبيك الممأسس؛ وتصحيح أخطاء ثورات الربيع العربي، وإتمام معارك إصلاح الذهنيات؛ وتحصين مكتسبات الثورات العربية وتعزيز مشروع الربيع العربي ونشر قيمه؛ والمشاركة في معارك الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ومحاربة الفساد بالحوار والنقاش، وبتبادل قاعدة البيانات عبر منصات الترابط الشبكي؛ وتجديد إنتاجات المثقف باقتحام الإشكاليات المعرفية المرتبطة بتحولات الربيع العربي، وتبسيط المشروعات الفكرية النهضوية، وتحويلها إلى نصوص رقمية واسعة الانتشار والتداول؛ وحضور المثقف في الميادين والساحات العمومية.

نميل إلى الظن أن فاعلية هذا الخيار الاستراتيجي أُسست بمراعاة بعض المعطيات، نذكر منها:

- عدم تضخيم دور المثقف الشبكي، حتى لا نحاسبه محاسبة جائرة تتجاوز مقدار دوره الحقيقي؛ إذ دأب الجمهور على تمثل صورة نمطية في شأن دور المثقف، تجعله في مستوى «مافوق الثقافي»، وتلبسه عباءة المسيح الذي يخلص العالم من أزماته وآلامه، ويملك مفاتيح التاريخ وشفرة التغيير، في حين أن دوره، كغيره من سائر فئات المجتمع، يكمن في الدفاع عن الحرية والعدالة والتنمية، «ما استطاع إلى ذلك سبيلا».

- إشراك الشباب والفاعلين الشبكيين الذين كان لهم ذراع طويلة في الحراك الاجتماعي، والاستفادة من مواهبهم وخبراتهم التقنية والتواصلية.

– ابتكار الأفكار الجديدة، وتغيير أنماط القراءة وخرائط المعالجة، بما يتماشى مع إيقاعات تحولات البُنى الثقافية والسياسية، والمتغيرات التي اخترقت نسق القيم في سوق ثقافة متعولمة؛ والاقتناع أن العصر الذي كان المثقف (الفقيه) يُعد من «ورثة الأنبياء» ولّى، وأن دوره اليوم أصبح محكومًا بهذه المتغيرات[64].

– تجاوز أخطاء المثقف «التقليدي»، ولا سيما ما يتعلق بتحرره من سطوة رجل السياسة، وعدم تصميم مشروعاته الفكرية على مقاسه الخاص، وتجاوز أمراضه النفسية التي عالجها عبد الإله بلقزيز بنظرة شمولية وبقدر كبير من الموضوعية، ما يكفينا مؤونة الولوج إلى تفصيلاتها[65].

– المشاركة في إنجاز ثورة العقل في مرحلة مابعد الربيع العربي، عن طريق التوعية الشبكية والاستنهاض والتنوير.

– اعتماد مبدأ التكامل الذي مثل إحدى فرضيات هذا البحث، بمعنى أن الخيار الاستراتيجي الذي نقترحه لا يلغي دور المثقف «التقليدي» ونضاله الذي امتد عقودًا من الزمن؛ بل تبدو الحاجة إلى منابع مرجعياته الفكرية، وإلى خبرته النضالية مهما تقادمت، لكن بأداء جديد يتشرب من الزمن التقاني، ويحيّن نفسه مع مستجدات النظم الفكرية وسوق القيم الثقافية، ويتماهى مع تحولات الربيع العربي.

لا مشاحة في أن سياقات انفجارات الربيع العربي وضعت المثقف «التقليدي» في قفص الاتهام، خصوصًا ما يتعلق بعدم تنبؤه وقوعها[66]، وعدم الانضمام إلى حركات الاحتجاج، وبقائه في مقعد المتفرج. لكن يبدو على الرغم من صدقية هذه

(64) بلقزيز، ص 16 و19.

(65) المرجع نفسه، ص 37–49 و150–151.

(66) في شأن عدم تنبؤ المثقفين العرب بانتفاضات الربيع العربي، وفي سياق التاريخ المقارن الذي يثبت أن المثقفين الأوروبيين أنفسهم لم يتنبأوا بالثورة الفرنسية، انظر: ولد أباه، ص 77–78 و143. وللأمانة، إن المفكر عزمي بشارة كان قد تنبّأ منذ 2007 بما سيقع في تونس من تحوّل ديمقراطي، ولو في الجانب النظري. انظر: عزمي بشارة، **في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)، ص 222.

الأحكام، أن موقفه يُدرج في سيرورة تاريخية متكررة، وفي سياق أزمة مجتمعية دورية، أو هي بكلمات العروي «أزمة لا تفارق المثقف في كل مجتمع وفي كل حقبة من الحقب التاريخية»[67]. وبقدر ما كشفت انفجارات الربيع عن تقاعسه و«زلاته»، أظهرت الحاجة إليه. فنضجه وتجاربه النضالية لا تزال موضوع الطلب لتدبير إدارة مرحلة الانتقال، وضمان عبور آمن من مرحلة الإدارة الشخصية (فكر الزعيم المُلهم)، إلى الإدارة المؤسسة (الفكرة المُلهمة)[68]، وتفادي انزلاق الثورات نحو مستنقع الفوضى والفتن. كما أن التحول الديمقراطي يحتاج إلى خطة محكمة وبرنامج دقيق، يكون موضع اتفاق بين القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة. وفي المقابل، فإن شباب الانتفاضات في حاجة ملحة إلى المثقف لعدم تمرسهم في العمل السياسي، وافتقارهم إلى التجربة؛ الأمر الذي يتجلى على سبيل المثال في افتقار شباب تنسيقيات الثورة السورية إلى الخبرة في ضبط الحوار في داخل اتحاد التنسيقيات[69].

2- خطة العمل

تقوم خطة العمل على مجموعة من الأساليب التي تتيح للمثقف الشبكي الحضور الفاعل، والإجابة عن أسئلة مرحلة مابعد الربيع العربي. ونقترح في هذا الصدد بداية التفكير الجماعي التشاركي، وتفعيل العقل التداولي الشبكي الممأسس، حيث تشمل خطة الخيار الاستراتيجي المقترح تمطيط دائرة نشاط المثقف الفرد، ليتحول إلى مثقف جماعي شبكي اعتمادًا على مقولة «توسيع المساحات وتقريب المسافات»[70]، لتحقيق دور فاعل؛ ذلك أن الدفاع عن القيم والمثل رهن بالمساحات المتاحة للعمل، والمساحات الفكرية المتخيلة التي يفكر فيها الناس. فكلما تقلصت المسافات واتسعت مساحة الالتقاء والحوار

(67) عبد الله العروي، **ثقافتنا في ضوء التاريخ** (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1983)، ص 171.

(68) مجموعة مؤلفين، **الثورة المصرية**، ص 578.

(69) حمزة المصطفى، **المجال العام الافتراضي في الثورة السورية: الخصائص، الاتجاهات، آليات صنع الرأي العام** (بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 151.

(70) مجموعة مؤلفين، **الثورة المصرية**، ص 566-567.

بينهم، أصبح التغيير ممكنًا، والفاعلية أكثر نجاعة، وتمخض عنه «العقل الجمعي» القادر على إنتاج مفهوم جديد للمجال العام[71]. فالمثقف الشبكي يصبح في هذا المشهد الجماعي جزءًا من مؤسسة شبكية تملك قوة الفاعلية في تبادل الإنتاج المعرفي وتوزيعه، وتسويق الأفكار وتداولها، وإبداع رؤى جديدة. ويقوم المثقف الشبكي في نسيج هذه الشبكية المؤسساتية، بدور الوسيط الفكري الذي يحول الأفكار نحو المجتمع، لأن المؤسسات المعرفية الشبكية تحتاج إلى وسطاء يمدونها بالأفكار، ويساهمون في إنشاء بيئة للتفكير، وتوسيع مساحة المعرفة والتواصل.

من البدهي أن يتحوّل هذا النمط من التواصل بين المثقف الشبكي والرأي العام إلى منظومة جديدة للسلوك بين طرفين: مُرسل يُرسل ليستقبل، ومُستقبل يستقبل ليُرسل؛ إنه نوع من السلوك الارتدادي التفاعلي في عالم المثقفين الشبكيين التبادليين، لا السلوك الأحادي المألوف الذي ينسج هالة من التقديس على المثقف، ويهبه سلطة فكرية تفرض على المتلقي القبول والامتثال. بذلك يحول المثقف الشبكي «سلطة المتكلم» التي كان يحتكرها المثقف، والتي كانت «لا تنتج إلا مونولوجًا ممتدًا في العبث»[72] إلى عملية تفاعل اجتماعي تبني معاني جديدة، تؤدي إلى إنتاج المعرفة وتوزيعها توزيعًا تشاركيًا في سياق ما يسميه جان بودريار «انبجاس المعنى في الميديا»، أي إعادة إنتاج الأفكار على مستوى القاعدة، لا احتكار إنتاجها من فوق[73].

إضافة إلى ذلك، تقوم خطة العمل على تصحيح أخطاء ثورات الربيع العربي وإتمام معارك إصلاح الذهنيات؛ إذ إن ثورات الربيع العربي سقطت بسبب طابعها الفجائي، وما رافقها من فوران وغليان في أخطاء ذاتية وموضوعية، تجلت في عدم

(71) مجموعة مؤلفين، **الانفجار العربي الكبير**، ص 91.

(72) بلقزيز، ص 66.

(73) جان بودريار، **المصطنع والاصطناع**، ترجمة جوزيف عبد الله (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص 147. ونودّ هنا التنويه بدور الموقع الإلكتروني للمركز العربي للبحوث ودراسة السياسات، ومؤسسة مؤمنون بلا حدود، وموقع المدونين العرب، وبعض المواقع الأخرى التي تخلق تفاعلًا بين الكاتب والقارئ.

تحصين مكتسباتها؛ ما أسفر عن انفلاتها من قبضة مفجريها، وسطو أيادٍ غير أمينة امتدت في جنح الظلام لسرقتها. كما أُنهكت وهي في عز فتوتها بفعل النزاع المذهبي والطائفي والقبلي، وهو أمر لا تخطئ العين السليمة في رؤيته في كل من ليبيا واليمن وسورية. وبطبيعة الحال، لا يهمنا في هذه الدراسة تعداد أخطاء ثورات الربيع العربي وحصرها، بقدر ما يهمنا دور المثقف الشبكي في الحيلولة دون استفحالها؛ وذلك بتحوله إلى «ناشط» في مواقع التواصل الاجتماعي والساحات والميادين لنقد الثورات، ووضع الإصبع على أخطائها وأعطابها، وعدم التعامل معها على مقاسه الخاص، بل السعي إلى تصحيحها من خلال طرح أفكاره في صفحات «الويب»، وإبداع البدائل المتاحة[74]؛ وذلك بفتح نقاش جماعي على صفحات منصات التواصل الشبكي لرصد أفضل الخيارات واختيارها، مع استحضار تجارب الدول التي شهدت في التاريخ القريب مراحل الانتقال الديمقراطي في أوروبا الشرقية وأميركا اللاتينية وجنوب أفريقيا لفهمها والاستئناس بها، والاستفادة من دروسها لتوجيه بوصلة ثورات الربيع العربي نحو الاتجاه الصحيح.

من المعارك الذهنية الأساسية التي من المفترض أن ينصب في شأنها جهد المثقف الشبكي من خلال مؤسسات ثقافية افتراضية، مسألة الإصلاح الديني، بحكم ما للدين من وقع على المجتمع العربي، خصوصًا أن الشبكة العنكبوتية لا تخلو من مواقع إلكترونية تعمل على مسخ تعاليم الإسلام السمحاء، وتحرض على الإرهاب، أو تنشر قيم ثقافة الخوف والخنوع والطاعة، وإشاعة الخرافة والأمية وأشكال السحر والشعوذة. كما تتجسد معركته في تسخير طاقته الفكرية لتطوير خطاب ديني حداثي يلائم بين تطلعات الإسلاميين والعَلمانيين، بهدف إنتاج «عَلمانية متصالحة مع الدين»[75].

محور آخر لخطة العمل هو تأسيس جبهة ثقافية تشبيكية لتحصين مكتسبات ثورات الربيع العربي. فمرحلة مابعد الربيع العربي تستدعي قيام المثقف الشبكي بتعزيز خيارات ثقافية تجعل من ثالوث الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي

(74) بشارة، **المثقف والثورة**، ص 34–35 و38–39.

(75) ولد أباه، ص 108–119، وعبد اللطيف، **الثورات العربية**، ص 89–90، 105 و116–117.

سعت إليها ثورات الربيع العربي، هدفًا وغاية في كتاباته الرقمية، وفي إبحاره عبر الشبكة العنكبوتية، لأن هذه القيم لا تولد دفعة واحدة، بل إن عملية المتابعة عن طريق النقد والإصلاح هي التي تؤدي إلى تنميتها وتوسيع مساحتها[76].

لتفعيل هذه اليقظة، نقترح في سياق الخيار الاستراتيجي المقترح بناء جبهة افتراضية من المثقفين الشبكيين لتحصين مكتسبات الربيع العربي وحمايتها؛ ليس بالضرورة أن تكون مسنودة بقاعدة «الإجماع الثقافي»، كما اقترح الجابري في دعوته إلى بناء كتلة تاريخية في مشروعه الثقافي منذ أعوام، لأن المتغيرات الدولية وتحولات الذهنية العربية التي سبق معالجتها تستلزم بناء جبهة ثقافية افتراضية تتسع للمتعدد والمختلف والمعارض، بما يمليه منطق الديمقراطية، خلافًا لما استبعدته المشروعات الثقافية السابقة. وتتجلى مهمات هذه الجبهة الافتراضية في تطوير الذهنية العربية التي بدأت ملامح تغيراتها تتبلور مع انتفاضات الربيع، وكسر القوالب المعرفية الجاهزة، وتعزيز قيم الثورات العربية، والتحفيز على معانقة الثقافة الديمقراطية وحقوق المواطنة، وفضح الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان، والتعبئة الدائمة للخروج إلى الميادين للاحتجاج كلما تطلب الأمر ذلك، والتحريض على توقيع العرائض الإلكترونية لإطلاق سجناء الرأي، والتصدي لأساليب إعادة إنتاج الاستبداد، أو أسطرة الأشخاص، والعمل بصورة جماعية لاقتراحات عقلانية للوصول إلى أفضل النماذج الديمقراطية. أما وسيلة التحقق فتكمن في تعزيز ثقافة الحوار بين المجموعات المكوّنة للجبهة الافتراضية التي تواصل عملية الحراك العربي.

أخيرًا، تقوم خطة العمل على تحيين المشروعات الفكرية وتوجيه بوصلة البحث نحو إشكاليات الربيع العربي. ففي خضم التحول التاريخي الذي وقفنا على آثاره في المستويين العالمي والمحلي العربي، بات من المنطقي أن يؤسس المثقف الشبكي استراتيجية بحثية جديدة يتحول فيها دوره القائم على الانتظارات والمراوغات الفكرية والمخاتلات السياسية، إلى دور الفعل المؤسس، انطلاقًا من الاهتمام بالمستجدات والتغيرات التي خلفها الربيع العربي.

(76) بشارة: **في الثورة والقابلية للثورة**، ص 83، و**في المسألة العربية**، ص 226.

3- دور المثقف الشبكي في الميدان:
من المراقبة عن بُعد إلى المعاينة والإنصات والاحتجاج الثقافي

على الرغم من أهمية مواقع التواصل الشبكي، كما أبرزناها في الصفحات السالفة، فهي لا تمثل إلا نصف الدورة الكاملة لخطة العمل التي طرحناها. صحيح أنها تقوم بدور في التوعية، وتُوسع - بتداولها وانتشارها - قاعدة الجمهور الذي يصبح هو نفسه مشاركًا في إنتاج المعرفة والتعبئة من أجل تحقيق الحرية والديمقراطية والعدالة، بيد أن الرهان عليها لا يكون كافيًا إذا بقيت مقصورة على المستوى الافتراضي من دون أن تتفاعل مع الواقع[77]. ومن ثم، لا بد من تنزيل ما أنتجه المثقف الشبكي من أفكار وإبداعات وتصورات إلى الميدان، ليكون ممارسًا فاعلًا، لا مفكرًا مراقبًا عن بعد فحسب. فلو افترضنا - كما يقول عزمي بشارة - أن «جلس الجميع وراقبوا الحاسوب، أو اكتفوا بالمشاركة في الشبكات الاجتماعية، لما نشبت تظاهرات احتجاجية»[78].

تأسيسًا على ذلك، يمكن القول إن التواصل الشبكي يمثّل الجانب النظري الافتراضي؛ بينما يمثل الحضور الميداني الجانب التطبيقي لخطة الخيار الاستراتيجي. ويعد كلاهما أداة لتطوير الآخر؛ فالميدان يطور المقترحات والتصورات الافتراضية الشبكية؛ وترشده هذه الأخيرة نحو الاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه. ولعل ما يعكس الترابط بين التشبيك والميدان، ما لوحظ في اللافتات التي حملها المتظاهرون، والرسوم الغرافيتية المنتشرة في الميادين والشوارع، والمتضمنة كتابات وعلامات تشيد بمواقع التواصل الشبكي كالفيسبوك وتويتر وقناة **الجزيرة**[79]، ما يدل على جدلية العلاقة بين الافتراضي والواقعي.

الحاصل أن الميدان هو المكان الذي يتيح للمثقف الشبكي التقاط الأجوبة الصحيحة التي تعثر فيها المثقف التقليدي المتعالي عن الجمهور، ليبدأ دوره في بناء الفكر. فثورات الربيع العربي، وما أعقبها من انتقالات، تتطلب من المثقف

(77) مجموعة مؤلفين، **الانفجار العربي الكبير**، ص 135.
(78) بشارة، **الثورة التونسية المجيدة**، ص 150.
(79) سراج، ص 359.

إتقان فن الإنصات، والتشخيص الدقيق قبل أي تحليل أو تأمل. كما تحتاج إلى تخزين فوري لذاكرة التاريخ بالصوت والصورة؛ وهو أمر لا يكون إلا بانخراط المثقف في الميادين، وبجرأته على رصد المشهد ونقله بالكاميرا وآلات التسجيل... وغيرها[80]؛ ليبدأ بعد ذلك في استخدام معول التحليل وآلة النظر.

في الاتجاه نفسه، أُسست حديثًا حركة «احتلوا وول ستريت»[81] (Occupy Wall Street) المتأثرة بانتفاضات الربيع العربي، وهي حركة مناهضة للرأسمالية الليبرالية المتوحشة، تطالب بوقف هيمنة المؤسسات المالية على حياة البشر، وتدهور الأوضاع المعيشية لذوي الدخل المحدود. ومن اللافت في هذه الحركة أنها جعلت من الميادين فضاءً للمثقفين الذين اقتنعوا بفلسفتها، من أمثال نعومي كلاين وجيفري ساكس، والروائية الكندية مارغريت أتوود، وعالم اللسانيات الكبير نوام تشومسكي الذي ألقى محاضرة في ساحة الاحتجاج في بوسطن، وغيرهم من المثقفين الذين وقعوا عريضة «حركة كتاب احتلوا» على الإنترنت[82]. وتستند هذه الحركة إلى جانب آلية التواصل الشبكي على الحضور في الميادين وأكبر شوارع المدن، ما يدل على أن المثقف الغربي اختار هذا الاتجاه لفاعليته.

4- كوابح دور التواصل الشبكي والميداني

على الرغم مما يقدمه التواصل الشبكي والميداني من إمكانات قيام المثقف بدور يجمع بين إنتاج المعرفة والتغيير، بين التمثل والفعل، بين العقل والجسد، فثمة أسئلة مؤرقة وهواجس حارقة تظل ماثلة في مثل هذه القضايا المرتبطة باللحظات المفصلية كلحظة مرحلة تحولات الربيع العربي. وتُثار تلك الأسئلة لتستنطق حزمة من الكوابح التي تعوق مسار التواصل الشبكي والميداني الذي

(80) هذا ما قام به جماعة من شباب التحرير، وأنشأوا له موقع «الكاميرا هي سلاحي» للتواصل مع العالم الخارجي. كما جاءت الشعارات المرفوعة في ميدان التحرير لتعلي من قيمتها «الكاميرا والميموري والموبايل، إيد واحدة». انظر: سراج، ص 246.

(81) للمزيد من التفاصيل بشأن هذه الحركة، انظر: «Protests Won't Stop Trump: We Need a Movement That Transforms into a Party,» OccupyWallSt (2 February 2017), at: bit.ly/1Rmv9dH.

(82) فخري صالح، «المثقفون وحركة احتلوا»، جريدة **الدستور**، 26/ 7/ 2014.

طرحناه خيارًا استراتيجيًا يستجيب لمتطلبات مرحلة التحولات الراهنة. ومع أن هذه الكوابح تستعصي على الحصر لتعددها وتعقيداتها وملابساتها، فإننا سنقتصر على تناولها في الحيز المتاح في هذه الدراسة من خلال رؤية ترتكز على ثلاثة أبعاد:

أ- المثقف الشبكي وفخ هيمنة أيديولوجيا مجتمع المعرفة

إن التحدي الذي يواجه دور المثقف الشبكي يتمحور في الأساس حول ما إذا كان هذا الدور المرتبط بمرحلة الانتقال الديمقراطي العربي قادرًا على أن ينفلت من قاموس النمط الليبيرالي، وأجندة التضخم المتواصل للرأسمالية المعرفية. فالإشكالية لا تنحصر في تحقيق النقلة من دور تقليدي إلى دور تشبيكي، بل ترتبط بعملية تدبير هذا الدور الأخير وإدارته وتوجيهه، حتى لا يسقط في فخ أيديولوجيا مجتمع المعرفة التي على الرغم من كونها أيديولوجية «بلا أعداء»، لكنها تظل أيديولوجيا بديلة من الأيديولوجيات السائدة[83]. وربما لا تخلو من كمائن تجعل العبور نحو المجتمع الديمقراطي عبورًا يصب في مصلحتها إذا لم تحضر إرادة الفاعلين في التغيير، وانخراطهم في معركة التقانة والتواصل الشبكي بوصفهم مبدعين ومشاركين، لا مستهلكين ومقلدين خطوط مرسومة سلفًا[84]. فأي خلل في التدبير يجعل الربيع العربي في مهب الريح، وأقرب إلى مقولة «الأجندة الخارجية»؛ وإن كنا غير مقتنعين بها على الرغم من القرائن التي يقدمها القائلون بها[85]. ومع ذلك، فإننا نشدد على يقظة المثقف الشبكي، واستقلاله عن أي مصدر يُسيئ للأمن الثقافي العربي.

---

(83) فيليب بروتون، وآخرون، **ثورة الاتصال: نشأة أيديولوجيا جديدة**، ترجمة هالة عبد الرؤوف مراد (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1993)، ص 9 و189.

(84) عبد اللطيف، **المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي**، ص 56 و131.

(85) يستند طارق رمضان في أطروحته القائلة بالأجندة الخارجية إلى حجة المبادرات الأميركية لتدريب المجتمع المدني المصري على أساليب المقاومة القائمة على استخدام التواصل التقني في التعبئة والحشد ضد الأنظمة. مثلًا، في: طارق رمضان، «حقيقة الربيع العربي»، يوتيوب 13/ 11/ 2011، في: bit.ly/22NScBN.

ب- المثقف الشبكي وإكراهات القوى المعوّقة الحداثة

إذا كان القول بالمثقف الشبكي لا يطرح أي إشكال في المجتمعات الغربية بفضل اندماجها في مرحلة مابعد الحداثة، فإنه لا يزال يطرح علامات استفهام في المجتمع العربي بسبب تجذر البُنى التقليدية، على الرغم مما أفرزه الربيع العربي من تحولات على مستوى الذهنيات. وحسبنا أن رواسب الذهنية التقليدية لم تندثر بترسباتها كلها، ولا تزال تمارس توجيهًا سلبيًا يُلقي بظلال الشك والريبة في شأن المثقف الشبكي الذي تتهمه بخدمة أجندة خارجية، وهو تصور تزيد من تعميق سمكه نسبة الأمية التي لم تتخلص معظم المجتمعات العربية من أوحالها[86].

لا يصطدم المثقف الشبكي بعقلية تقليدية فحسب، بل بقطاع عريض من المجتمع أيضًا لا يزال يهتم بالمعيش اليومي أكثر من اهتمامه بالشبكات الاجتماعية؛ إذ تثبت الإحصاءات أن 24 في المئة في الشرق الأوسط يستخدمون الشبكات الاجتماعية، في مقابل 56 في المئة في أميركا الشمالية[87]؛ فضلًا عن غياب بنية تحتية ثقافية صلبة، وجامعات حديثة تُنتج مجتمعًا علميًا، وتُخرج مفكرًا مبدعًا، ما يعكس صورة أخرى من صور الكوابح المعرقلة للتواصل الشبكي.

يُضاف إلى عقبة الأمية وهشاشة البنية التحتية، تجذر النزعة القبلية في بعض دول الربيع العربي، ولا سيما في اليمن وليبيا التي توجد فيها 150 قبيلة[88]؛ وهي ظواهر تشكل معوّقات لآلية التواصل الشبكي وانقطاع خدماته.

---

(86) كمال عبد اللطيف، **العرب في مواجهة حرب الصور** (اللاذقية: دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، 2008)، ص 179-181 و184. وبشأن تدني مستوى التعليم في العالم العربي (باستثناء دول الخليج) في ترتيب التنمية البشرية، انظر: **تقرير التنمية البشرية 2014** (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2014)، ص 190-193.

(87) عماد بن يحيى، «تقرير مؤسسة We Are Social: إحصاءات عن الشبكات الاجتماعية والإنترنت في 2014»، عالم التقنية (موقع إلكتروني) (14 كانون الثاني/ يناير 2014)، في: bit.ly/1mVEisM.

(88) ولد أباه، ص 36.

ج- التشويش على المثقف الشبكي من لدُن التيارات المضادة للتغيير

إن عالم التشبيك ليس فضاءً رقميًا خاصًا بالمثقف الشبكي فحسب، حتى يتاح له نشر قيم المعرفة بما تشتهيه نفسه؛ بل هي قارة مفتوحة للجميع، يوجد فيها المثقف إلى جانب الداعية والمجرم الإلكتروني ورجل الاستخبارات و«الكتائب» التي تستنبت فيها الأفكار الهدامة، وتزرع بذرة الفتنة والطائفية والمعلومات المغلوطة والمضللة. بل إن هذه القارة الشاسعة لا تمانع أيضًا في أن تدخلها فلول الأنظمة المستبدة المنهارة، أو تلك التي لا تزال تترنح تحت الضربات الأخيرة السابقة على الاحتضار. فغالبًا ما سُخّر الفيسبوك لمجموعات مؤيدة للأنظمة الممانعة ضدًا على المعارضة؛ فلا يزال بعض المجموعات الافتراضية المضادة لتيار ثورة 17 شباط/ فبراير في ليبيا مستمرًا حتى بعد سقوط نظام القذافي[89]. وفي المنحى نفسه، لم تتورع مجموعات أخرى عن التشويش على الثوار ورموز المعارضة السورية وتخوينهم ونعتهم بالعمالة، على صفحات الويب[90]. كما يجري الترويج في صفحات أخرى للخطابات الشعبوية، كخطاب الشيخ عدنان العرعور الذي يصبح أكثر وقعًا في نفسية الشباب الثائر من خطاب برهان غليون المعقلن[91].

على غرار هؤلاء، تسعى الجماعات التكفيرية وبعض القوى السلفية إلى استثمار مواقع الترابط الشبكي لتسويق أفكارها التي لا تقبل بالحوار مع الآخر، ولا تظهر أي استعداد لتشكيل جبهة شبكية افتراضية متحالفة مع قوى التغيير، لأنها ترفض الديمقراطية بمفهومها الغربي وتعدها «لعبة قذرة»[92].

خاتمة مفتوحة على بداية

جُماع القول إن منجزنا التركيبي - التحليلي في هذه الدراسة المتواضعة سعى إلى ترميم ثغرة من الثغرات المحيطة بسؤال تجديد أدوار المثقف العربي

---

(89) منتديات زنقتنا، في: bit.ly/1PMKHUw.

(90) المصطفى، ص 120.

(91) المرجع نفسه، ص 102-103.

(92) مجموعة مؤلفين، **الثورة المصرية**، ص 247، وحرب، **ثورات القوة الناعمة**، ص 230.

في ضوء التحولات التاريخية، انطلاقًا من تحول تاريخي يُدرج في عتبات التاريخ الراهن، وهو حدث الربيع العربي الذي يمثل بحق منعطفًا حاسمًا في مسار التاريخ العربي. ولإيجاد الخيوط الناظمة للإجابة عن سؤال الأدوار المنوطة بالمثقف في خضم هذا التحول الكبير، سعينا إلى ربطه بالتحولات العالمية، ولا سيما في مجال ثورة الاتصالات ومنصات التواصل الشبكي؛ فاتضح أن التطور المعرفي المرتبط بمجتمع المعلومات أعاد بناء مفاهيم جديدة للمثقف، وحدد له أدوارًا لم تكن مألوفة؛ وأن انفجار الربيع العربي الذي جاء متساوقًا مع ثورة الاتصالات رسم معالم ذهنية عربية جديدة حتمت على المثقف العربي إعادة توجيه أدواره أيضًا، وترويضها بما يتلاءم مع مستجدات الواقع، وسياقات التطور المعرفي.

تأسيسًا على هذه الرؤية الكونية التي مثلت منظورنا في صوغ دور المثقف، دافعنا عن الأطروحة التي ترى أن نجاح هذا الدور يكمن في فهم هذا العالم أولًا، ثم معرفة كيفية تغييره بعد الفهم والإدراك؛ الأمر الذي عزّزته فرضيات البحث التي أكدت أن كل لحظة تاريخية تنتج مفاهيم وأدوارًا جديدة للمثقف، وأن لغة الزمن التقاني المتسيد، غيّرت مفهوم المثقف ووظائفه تبعًا لتغير سوق القيم الثقافية.

بعد تشخيص معالم التحولات الذهنية الناتجة من الربيع العربي، ومعالجتها بوصفها خيوطًا مرشدة لفهم الأدوار التي يمكن أن يضطلع بها المثقف العربي وسقفها، صوبت الدراسة النظر نحو اقتراح مجموعة أدوار تتلاءم مع ظرفية المتغيرات الجديدة، وتؤسس على التشبيك والتواصل الميداني بوصفه خيارًا استراتيجيا مرنًا، قابلًا للتغيير بحسب المستجدات، يروم تكميل منجزات الثورات السياسية التي جاء بها الربيع العربي، بثورة ذهنية تمثّل المادة الخام «لربيع عربي ثان»، يعتمد «خطة عمل» اقترحنا أن تتألف من ثالوث يجمع بين التشبيك ونشر المعرفة والمعاينة الميدانية. وتتلخص أبرز أهدافها في العمل الجماعي التبادلي، وتفعيل العقل التداولي التشاركي من خلال التشبيك الممأسس، وتأسيس جبهة افتراضية شبكية تجمع طاقات المثقفين، وتوسع قاعدة الرأي العام، بإشراك فئة الشباب والفاعلين «الميديائيين»، وذلك لإبداع سلوك ثقافي تفاعلي يتحول بموجبه المثقف من دور القيادة الموهوم، إلى دور «ناشط» في منصات التواصل الشبكي، ومكون من مكونات العقل الكوكبي، ومشارك في إنتاج المعرفة، مع

التشبث بروح التفكير الجماعي ونظام الفريق، بدلًا من الانعزال والتأمل الطوباوي، وعدم إحداث قطيعة مع دور المثقف «التقليدي». لذلك وقفنا على صحة فرضية التكامل التي لا تلغي دور الأخير ونضاله الممتد عبر عقود من الزمن، بل تنحو به نحو تشرب موجة الزمن التقاني الذي يُعد أرقى مكسب وصل إليه الفكر البشري، ومواكبة مستجدات النظم الفكرية، والتماهي مع تحولات الربيع العربي.

إضافة إلى ذلك، بيّنا في هذا البحث أن دور المثقف الشبكي لا يكتمل إلا بحضوره الميداني الذي يتيح له الإنصات إلى نبضات المجتمع والتشخيص الدقيق لمشكلاته ومطالبه، وتخزين ذاكرته التاريخية عبر الصورة؛ ليبدأ عقب ذلك في استخدام معول الاستنباط وبناء الفكر. واستخلصنا في نهاية التحليل أن دور التواصل الشبكي والميداني هو حالة انتقالية، ولحظة صعود تاريخي، وتفكير في قلب الحداثة؛ ومع ذلك فإن الأمر لا يخلو من مطبات سطّرناها في ثنايا البحث. ولتطوير الطموح، نقترح توصية بإنشاء مؤسسة عربية مشتركة للثقافة الرقمية، قادرة على المنافسة العالمية، ومساهمة في تحديث دور المثقف العربي، وتعزيز القيم الكونية. كما نقترح تحفيز المثقفين على معالجة القضايا المرتبطة بثورات الربيع العربي سياسة وفكرًا، وإنشاء مكتبة إلكترونية تضم كل ما كتب في شأنها.

نختم بالقول إن هذه الدراسة سعت إلى تقديم رُؤى وأفكار تروم المساهمة في إثراء النقاش في شأن ملف دقيق يعكس تحولًا في مسار الفكر العربي، ورسم الخطوط الأولية للإجابة عن سؤال تجديد أدوار المثقف في ضوء الهزات والتحولات التي أحدثها الربيع العربي، ولو إجابة موقتة، في انتظار أن تمتد إليها أيادي النقد.

المراجع

1 – العربية

أوملیل، علي. **السلطة الثقافية والسلطة السياسية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996.

بروتون، فيليب وآخرون. **ثورة الاتصال: نشأة أيديولوجيا جديدة**. ترجمة هالة عبد الرؤوف مراد. القاهرة: دار المستقبل العربي، 1993.

بشارة، عزمي. **الثورة التونسية المجيدة: بنية ثورة وصيرورتها من خلال يومياتها**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

_____. **في الثورة والقابلية للثورة**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

_____. **في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.

_____. **المثقف والثورة**. منشورات كلية الآداب بالرباط. سلسلة كراسات الكلية رقم 6. الرباط: مطبعة الأمنية، 2013.

بلقزيز، عبد الإله. **نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.

بودريار، جان. **المصطنع والاصطناع**. ترجمة جوزيف عبد الله. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.

تقرير التنمية البشرية 2014. نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2014.

تقرير المعرفة العربي للعام 2009: نحو تواصل معرفي منتج. أبو ظبي: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/ المكتب الإقليمي للبلدان العربية بالتعاون مع ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، 2009.

الجابري، محمد عابد. **المسألة الثقافية في الوطن العربي**. سلسلة الثقافة القومية 25؛ قضايا الفكر العربي 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994.

حرب، علي. **أوهام النخبة أو نقد المثقف**. ط 5. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012.

_____. **ثورات القوة الناعمة في العالم العربي: من المنظومة إلى الشبكة**. ط 2. بيروت: الدار العربية للعلوم – ناشرون، 2012.

سراج، نادر. **مصر الثورة وشعارات شبابها: دراسة لسانية في عفوية التعبير**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

سعيد، إدوارد. **المثقف والسلطة**. ترجمة محمد عناني. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006.

شريعتي، علي. **مسؤولية المثقف**. ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا. سلسلة الأفكار الكاملة 37. ط 2. بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، 2007.

شيلر، هربرت. **الاتصال والهيمنة الثقافية**. ترجمة وجيه سمعان عبد المسيح. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 2007.

عبد اللطيف، كمال. **أسئلة الحداثة في الفكر العربي: من إدراك المكان إلى وعي الذات**. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009.

_____. **الثورات العربية: تحديات جديدة ومعارك مرتقبة**. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 61. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013.

_____. **العرب في مواجهة حرب الصور**. اللاذقية: دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، 2008.

_____. **المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

العروي، عبد الله. **ثقافتنا في ضوء التاريخ**. بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1983.

عماد، عبد الغني. **الثقافة وتكنولوجيا الاتصال: التغيرات والتحولات في عصر العولمة والربيع العربي**. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2012.

قبانجي، جاك. «لماذا 'فاجأتنا' انتفاضتا تونس ومصر؟: مقاربة سوسيولوجية». مجلة **إضافات**. العدد 14 (2011).

قتلوني، مصعب حسام الدين. **ثورات الفيسبوك: مستقبل وسائل التواصل الاجتماعي في التغيير**. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2014.

كرام، زهور. **الأدب الرقمي: أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية**. ط 2. الرباط: دار الأمان، 2013.

ليكيرك، جيرار. **العولمة الثقافية: الحضارات على المحك**. ترجمة جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديد، 2004.

مجموعة مؤلفين. **الانفجار العربي الكبير: في الأبعاد الثقافية والسياسية**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

مجموعة مؤلفين. **الثورة المصرية: الدوافع والاتجاهات والتحديات**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

مجموعة مؤلفين. **ظاهرة ويكيليكس: جدل الإعلام والسياسة بين الافتراضي والواقعي**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

المصطفى، حمزة. **المجال العام الافتراضي في الثورة السورية: الخصائص، الاتجاهات، آليات صنع الرأي العام**. بيروت/ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

ورد، عبد المالك. **المثقف وتحولات الربيع العربي**. مكناس: برنت شوب، 2013.

ولد أباه، السيد. **الثورات العربية الجديدة: المسار والمصير**. بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2011.

1- الأجنبية

Bourdieu, Pierre. *Questions de sociologie*. Paris: Les Editions de Minuit, 1984.

Castells, Manuel. *L'ère de l'information. vol 1: La Société en réseau*. Paris: Fayard, 1998.

Larrory, Michel. «L'élève numérique: Comment pensent et agissent les digital natives.» *Le Monde de l´éducation*: no. 368 (Mars 2008).

Levy, Pierre. «Vers une nouvelle économie du savoir: Des arbres de connaissances à la programmation comme des beaux-arts, en passant par l´idéographie dynamique.» *Solairis*: no. 1 (1994), at: bit.ly/1OPNSxS.

Noueihed, Lin & Alex Warren. *The Battle for the Arab Spring: Revolution, Counter-Revolution and the Making of a New Era*. New Haven, CT: Yale University Press, 2012.

«Protests Won't Stop Trump: We Need a Movement That Transforms into a Party.» OccupyWallSt (2 February 2017), at: bit.ly/1Rmv9dH.

Shirky, Clay. «The Political Power of Social Media, Technology: The Public Sphere and Politic Change.» *Foreign Affairs*. vol. 90. no. 1 (2011), at: https://goo.gl/HVH0dD.

Viala, Alain. *La Naissance de l'écrivain: Sociologie de la littérature à l'âge classique*. Paris: Editions de Minuit, 1985.